

الاهتمام بالمعالم الأثرية في الفترة الاستعمارية وجهة نظر

An interest monument in the colonial period Point of view

طاهر عبد القادر¹، لعمى عبد الرحيم²

¹ كلية الآداب واللغات، جامعة المدية (الجزائر)، aek_tahar@Hotmail.com

² كلية الآداب واللغات، جامعة المدية (الجزائر)، abderrahimlama@hotmail.fr

تاريخ النشر: جوان / 2021

تاريخ القبول: 2021/04/04

تاريخ الإرسال: 2019/09/13

الملخص:

لم يول الاستعمار الفرنسي منذ دخوله أرض الجزائر التراث الإسلامي المادي اهتماما كغيره من أنواع التراث التي تزخر بها المنطقة، ورغم وجود نداءات استغاثة لحماية هذا التراث من التخريب، على النقيض لقي التراث الروماني والبيزنطي الاهتمام منذ السنوات الأولى، ذلك أن سلطات الاستعمار كانت دائما تبرر وجودها بالجزائر على أنه امتداد للتواجد الروماني و بالتالي البحث عن شرعية للاحتلال، مع الوقت اهتمت السلطات الاستعمارية من خلال الباحثين بدراسة التراث العربي الإسلامي و يرجع الفضل للكثير منهم في جمع و قراءة التراث الإسلامي في الحقبة الاستعمارية، خاصة المعالم و الآثار التي تم هدمها و تخريبها إضافة للتراث اللامادي الذي اندثر بفعل الاستعمار، إلا أن الاهتمام بالتراث الإسلامي بقي حبيس المرتبة الثانية خلال الفترة الاستعمارية.

الكلمات المفتاحية: المعالم الأثرية، الحقبة الاستعمارية، المعالم الرومانية المعالم الإسلامية.

Absract:

In Algeria, colonialism was accompanied by a massive destruction of Islamic monuments, this does not prevent the existence of a call to safeguard the said heritage, for various artistic, historical or other reasons, however, the aspect Safe Dominated, however, ancient monuments and Roman and Byzantine archaeological sites have been the subject of special interest, as the colonial authorities consider the French presence on Algerian soil as a continuity of the Roman presence, Over time the Islamic heritage has been taken care of. Scientists and technicians have studied the Islamic culture.

Key words: colonial - period - heritage- romain- Islamic.

مقدمة:

مند الأيام الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر عمل العلماء الغربيون خاصة الفرنسيين بإيعاز من السلطات الاستعمارية و بدافع الفضول العلمي البحث في التراث المادي الجزائري المحلي كالمعالم الأثرية والتاريخية، وقد تركّز البحث في الأعوام الأولى للاحتلال على المواقع الرومانية والبيزنطية، تبريرا للتواجد الاستعماري على أنه امتداد للتواجد الروماني و البيزنطي بشمال إفريقيا قبل قدوم العرب والمسلمين، ثم تطور الاهتمام بالتراث ليشمل التراث الثقافي الإسلامي و قد جذب هذا الأمر الباحثين الغربيين وعلى رأسهم الفرنسيين للقيام ببحوث كثيرة في مجال التراث الثقافي الإسلامي بالجزائر، إذ كانت الجزائر كمثيلاتها من دول شمال إفريقيا، تمثل لهم حقلا غنيا بالموارد العلمية، عملوا على دراستها وقراءتها حسب قدرة الاستيعاب للثقافة المحلية التي كانت مغايرة بشكل كلي لثقافتهم.

مع الوقت اهتم المستشرقون خصوصا الفرنسيين أكثر بالتراث الإسلامي بالجزائر، خاصة أولئك الذين انتقلوا للعيش بالجزائر بصفة دائمة أو الذين نشئوا و ترعرعوا بها، ما ولد لديهم حس الانتماء للثقافة المحلية، فزاد الاهتمام و الفهم للتراث الثقافي الإسلامي، و توضحّت الرؤى بشكل أحسن مع هذا الجيل من المستشرقين، نتج عنه إنتاج فكري هائل يدرس التراث الثقافي الإسلامي بالجزائر. ومن الأمثلة التي نسوقها الأخوين جورج و ويليام مارسلي، و هما ابنا أسرة فنية، وعلى الرغم من أنهما لم يولدا بالجزائر إلا أنهما اهتمتا بالتراث الإسلامي بالجزائر على العموم و بتراث تلمسان بشكل خاص، خاصة ويليام الذي عمل بالجزائر، بمتحف الفنون الإسلامية لتلمسان، ثم مدير مدرسة تلمسان سنة 1898، ثم مدير المديرية العليا للأدب و اللغة العربية بتونس سنة 1913. مع العلم أنه متحصل على دكتوراة في القانون، عن التورث في التشريع الإسلامي. سنتطرق بالمقال إلى دراسة ظروف و مراحل الاهتمام بالتراث المادي بالجزائر ممثلة في المعالم الأثرية مع التركيز على التراث الإسلامي، مع دراسة عينة من الباحثين الذين نشطوا و اهتموا بالتراث الثقافي الإسلامي بالجزائر خصوصا منطقة تلمسان.

الهدم و التخريب:

الاستعمار والاحتلال كانا ولا يزالان مرادفين للهدم والتخريب، وقد عانت المدن الجزائرية ومعالمها من التخريب الذي طالها خلال الحرب و بعدها، حيث تعرضت لأعمال الهدم والتعديل كما تم تحويل الكثير منها لتشغل وظائف أخرى، وباعتبار المناطق أن المناطق المحتلة تدار من قبل الإدارة العسكرية كانت لمصلحة الهندسة بالجيش الفرنسي دور كبير في عمليات تهيئة المرافق للقوات العسكرية، التي تتموقع في قلب كل مدينة تحتلها، ويحتل أيضا المنازل الفارغة التي تركها أهلها فرارا من الحرب إضافة للمباني الدينية و القصور، التي حولت إلى إسطبلات و مخازن و مستشفيات و مساكن للعساكر، ويرافق الجيش خلال مسيرته الإحتلالية مجموعات قليلة من المعمرين، هم بدورهم يسكنون في البيوت التي تركها أهلها هربا من زحف الاستعمار.

وقد عمل الجيش الفرنسي بواسطة وحدة الهندسة لديه على إعادة تهيئة المباني المستغلة من طرف الوحدات المختلفة الجيش لتلائم حاجتها العسكرية أو المصالح المدنية الأخرى التي كانت تتموقع بالمدن، حيث أنه تم تقسيم الجزائر خلال الاستعمار في السنوات الأولى للاحتلال إلى ثلاث مناطق، مناطق عسكرية، يديرها الحاكم العسكري، مناطق مختلطة و يديرها كذلك الحاكم العسكري و مناطق مدنية (ظاهر ع. 2015).

ففي السنوات الأولى للاستعمار كانت المواقع و المعالم الأثرية دون استثناء تستغل كمورد للمواد الأولية، تؤخذ الحجارة و الأعمدة لاستعمالها في تشييد مباني الجيش و المعمرين، إلا أنه لم يمنع من وجود أصوات رافضة للتخريب الذي طال المواقع ، فالكثير من تقارير العسكريين نبهت للتخريب الذي كان يطل المواقع الأثرية و قد شملت التقارير بشكل خاص المواقع الرومانية لما كانت تمثله لسلطات الاحتلال.

الاهتمام بالمواقع الرومانية:

يعود الاهتمام بالمواقع الرومانية بالجزائر لما قبل الاحتلال، من قبل الرحالة و المساجين الذين كانوا بالجزائر، و قد أشار لذلك صادق بن قادة في مقاله علم الآثار و المؤسسة الاستعمارية، حيث يعطينا بعض التفاصيل لمساجين و رحالة و رجال دين وسفراء مروا بالجزائر وقد أشاروا لغناها بالمواقع الأثرية الرومانية، منهم روني لويس ديفونتين (1750-1833)، جين لويس بوري (1754-1834)، توماس شاو (1691-1794) و جاك بريس (1730-1794).

في السنوات الأولى للاستعمار تم إرسال عدّة بعثات علمية لاكتشاف الجزائر، رغبة في معرفة مكونات البلد جغرافيا، و ما يحتويه من موارد هامة و طبيعة المناخ والمناطق الأثرية، مع العلم أنه في الأيام الأولى للاستعمار وفي ظل قلة العلماء المرافقين لجيش الاحتلال وطبيعة الظروف الأمنية وسيطرة العسكر على معظم المناطق المحتلة أصبح الكل منقبا وعالم آثار، وقد استمر تدخل مختلف وحدات الجيش الفرنسي و بشكل أخص ضباط الهندسة بعمليات الاستكشاف الأثري لمدة طويلة، وبعد ثلاث سنوات فقط من الاحتلال الفرنسي طلب المارشال سولت (Soult) رئيس مجلس الحرب سنة 1833 مساعدة الأكاديمية الفرنسية للفنون و الآداب للقيام بأعمال علمية عن الفترات التاريخية القديمة الرومانية و البيزنطية، كما تم إنشاء لجنة بتاريخ 23 سبتمبر 1837 من طرف المارشال دان ريمو (Danrémont) لمراقبة الحملة العسكرية الثانية على مدينة قسنطينة، كانت مهمة اللجنة القيام بالاستكشافات الأثرية و قد تم نشر النتائج منذ سنة 1837 و بداية من سنة 1839 تم إنشاء لجنة الاستكشاف العلمية و كانت مختلطة بين علماء و تقنيين مدنيين وعسكريين (صادق بن قادة)¹.

اللجنة التي أسست سنة 1839 التي كان يرأسها العقيد بوري سان فانسو (Bory Saint-Vincent)، تشكلت من المهندس المعماري غافوازي (Ravoisié) و المؤرخ و عالم الآثار برير وقر

(Berbrugger) و غيرهم، قامت اللجنة بعدة عمليات استكشاف بين سنتي 1840 و 1842 وقد تم نشر الطبعة الأولى للنتائج سنة 1844 (طاهر ع. 2015).

يعتبر المهندس المعماري رافوازي (Ravoisié) و الذي كان رئيس لجنة الفنون الجميلة على أول من يرسم 700 لوحة للمعالم الجزائرية، التي كان أغلبها لمعالم الحضارات القديمة، إذ لم تُمثل اللوحات المُخصصة للعمارة الإسلامية بالجزائر إلا نزرًا قليلًا و بحكم قلة الميزانية المخصصة لنشر لوحات رسم المعالم الجزائرية، تم إلغاء نشر عدد كبير منها، كانت معظمها للفن المعماري المغربي الجزائري، وجدير بالذكر اللوحات القليلة المختارة للنشر عن الفن الإسلامي بالجزائر كانت عبارة عن مخططات و مقاطع و عناصر زخرفية أو واجهات للمعالم التي يمكن الوصول إليها، تلك التي أقام بها الجيش الفرنسي قاعدته، و نادرا ما يتم التعليق عليها. فإذا كانت اللوحات الأولى المخصصة لمقاطعة قسنطينة أُرِفقت بملاحظات فإن المجلدات التي تلت و التي تضمنت العمارة الإسلامية المغاربية بالجزائر لم تكن بها تعليقات. (نبيلة اولبصير، 2008).

الاهتمام بالمواقع الرومانية بالجزائر استمر بشكل تصاعدي باعتبار أن وجودهم بالجزائر هو امتداد للحضارة الرومانية و البيزنطية المتواجدين بالمنطقة قبل دخول الإسلام، و قد تمت خلال الفترة الاستعمارية دراسة و صيانة و ترميم معظم المواقع الأثرية الرومانية أو البيزنطية المتواجدة بالجزائر².

طمس التراث الإسلامي:

تعرضت المواقع الإسلامية منذ بداية الاستعمار للتهميش و التدمير، فقد كانت القوات الاستعمارية الفرنسية عند احتلال أي مدينة جزائرية في السنوات الأولى للاحتلال تقوم بالاستقرار بقلب المدينة محتلة بذلك المباني والقصور والمعالم الدينية المختلفة مثل (المساجد، الزوايا) و المدارس و مصادرة الأوقاف وكانت الغاية طمس الهوية الإسلامية للشعب الجزائري، ومن أمثلة التخريب والطمس استعمال المساجد والمدارس والقصور لوظائف مغايرة تماما، كمخازن و نذكر على سبيل الحصر المدرسة التاشفينية بمدينة تلمسان التي استعملت للتخزين في السنوات الأولى ثم حُوّلت لتكنة عسكرية سميت تكنة المدرسة و هو ما تثبته تقارير ومراسلات عدة، كما عبر أعضاء مجلس بلدية تلمسان خلال مداوالت عديدة عن رغبتهم في تحويل ملكية المدرسة من الجيش للبلدية، نذكر منها المداولة المؤرخة في 22 فيفري 1865. و قد قرر مجلس بلدية تلمسان تحويل المدرسة لسوق مغلق تم تقرر فيما بعد هدمها، و في هذا الأمر راسل رئيس بلدية تلمسان السلطات العسكرية للتنازل على المدرسة للبلدية بموجب عدة رسائل نذكر منها: الرسالة الموجهة لمدير التحصينات بتاريخ 05 نوفمبر 1866 تحت رقم 5023.

جامع المشور بتلمسان تم تحويله إلى مستشفى في السنوات الأولى ثم حول إلى كنيسة بعد أن تم إحداث تغييرات في عمارته لتطابق الوظيفة الجديدة، كما يخبرنا عن ذلك تقرير رئيس وحدة الهندسة

العسكرية بتلمسان المؤرخ في 23 جانفي 1863 وقد ظل المسجد يستعمل كمخزن لفترة طويلة وهذا ما تؤكد لنا رسالة حاكم وهران المؤرخة في 02 جوان 1872 الموجهة للحاكم العسكري بوهـران، يعلمه فيها أن المسجد يستخدم كمخزن للجيش، وحوالي 1878 أعدت مصلحة الجيش مشروع لتحويل المسجد لكنيسة، حول بعدها لكنيسة ظلت كذلك لغاية الاستقلال سنة وبعد الاستقلال استرجع المعلم وظيفته الأولى.

بدوره المشور المساجد والمدارس والقصور الذي كان عبارة عن قلعة على شكل مستطيل تقريبا بمقاس 150 م على 200 م، تضم مجموعة من القصور بالإضافة للمسجد و غيرها من المباني التي لا نعلم عنها إلا ما جاء في كتب بعض من الرحالة من وصف عام، لم يترك منه الاستعمار الفرنسي غير المسجد، الذي تحدثنا عنه سابقا، و السور الذي كان ارتفاعه 10 أمتار و مكونا من الطوب حسب تقرير العقيد لوميرسي (LEMERCIER) المؤرخ في 05 فيفري 1836. وقد تم بناء السور في الحقة الاستعمارية بالحجارة، نعتقد أن ذلك تم بمحاذاة سور الطوب الذي كان صلبا حسب تقارير عدة، و قد تم التأكد من ذلك بقذف السور بمدافع المساجد والمدارس والقصور³.

جامع كتشاوة بالعاصمة لم يسلم هو الآخر، فقد تم حرق جميع مصاحفه في ساحة الماعز التي أصبحت تعرف اليوم بساحة الشهداء وايضا مسجد محمد الباي عثمان الكبير بمدينة وهران الذي حول لمربط للخنازير ثم لمسكن للمعمرين الأسبان، وقد أحدثت الكثير من التغييرات على بنائه ليلائم وظيفة السكن، فالمعالم التي تم تدميرها أو تغيير وظائفها كثيرة جدا، فالمدن ذات الطابع الإسلامي بحد ذاتها تم تغيير طابعها بشكل شبه كلي، فقد أسست الأحياء الأوروبية في قلب المدينة الإسلامية، و بدأ النسيج العمراني للمدينة الأوروبية يمتد على حساب نسيج المدينة الإسلامية.

في مدينة تلمسان تمركز فرق الجنود في قلب المدينة و أنشئوا معسكراتهم بالأماكن الإستراتيجية فقد حولت قلعة المشور لثكنة عسكرية، كما احتلوا ثكنة البايك بجانب القيصرية و حولوها لثكنة، كما أنشئ بمنزل أحد أعيان المدينة يسمى مصطفى ثكنة سميت على اسمه، تم إنشاؤها بعدما قاموا بإحداث تعديلات عميقة على المنزل، بالإضافة إلى ثكنة قورماله التي أنشأت غرب المدينة و التي كانت تحتل ثلث المدينة. و قد استقر المعمرون الوافدون للمدينة في قلب المدينة بحي يقع بين الجامع الكبير و قلعة المشور وسط الثكنات العسكرية ويعتبر هذا الحي النواة الأولى للمدينة الأوروبية.

في مدينة الجزائر، أنشأ الوافدون الجدد معسكراتهم في المدينة السفلى للمدينة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، محتلين معالمها ومن هنا تأسست المدينة الأوربية فوق المدينة الإسلامية السفلى و تم تهديم معظم معالمها الإسلامية و تحويل ما تبقى لشغل وظائف أخرى.

اما بمدينة قسنطينة فالأمر لم يكن مختلفا عن المدن التي سبقتها، فبعد احتلال المدينة في الحملة الثانية التي قادها العميد بيريقو (Perrégaux) سنة 1837 بعد فشل الحملة الأولى سنة 1836، استقرت الوحدات المختلفة للجيش بالقسم العلوي للمدينة وبالرغم من محاولة إنشاء مدينة أوروبية خارج أسوار

المدينة الإسلامية إلا أن الأمر استقر بتحويل الجزء العلوي للمدينة الإسلامية لمدينة أوروبية. و قد تبع الأمر هدم الكثير من المعالم الإسلامية أو تغيير وظائفها وما يتبعه من تغيير للهوية و العمارة الإسلامية. في المقابل كان وضع غالب المدن في الصحراء أو ما يعرف بالقصور مغايرا فقد انشأت مراكز حراسة بالقرب من المدن بالصحراوية لكي يتم متابعة حركة السكان ،هذه المراكز تحولت فيما بعد لمدن بنمط غربي جنب القصور فسلمت المعالم في الصحراء من الهدم و التخريب الذي تعرضت له مثيلاتها بالمدن الشمالية. كما أن المناخ الصحراوي لم يجذب المعمرين للاستقرار بالصحراء فقد بقيت تحت السلطة العسكرية لغاية بداية القرن العشرين. مع العلم أن الاحتلال لم يصل لبعض المناطق أو يحكم سيطرته عليها إلا في بداية القرن العشرين، فمنطقة بشار جنوب غرب الجزائر مثلا لم تحتل إلا سنة 1902⁴.

يُطبق على الأماكن المحتلة قانون الحرب وقد جاء في مرسوم الحاكم العام للجزائر المؤرخ في 23 فيفري 1843، أن تلمسان أخذت بالقوة و بذلك فان الممتلكات تعود للدولة الفرنسية مستشهدا بالقرار المؤرخ في 01 ديسمبر 1840 والقرارات الخاصة التي أصدرت وحسب قانون الحرب كما جاء في مرسوم ،مع العلم أن معظم المعالم الدينية إن لم يكن كلها كانت تتبع للوقف، و مباشرة بعد الاحتلال تم بموجب قرارات متتابعة تحويل الوقف و ممتلكات البايلك إلى أملاك الدولة المحتلة، التي بدأت تتصرف فيها حسب القوانين الفرنسية أو حسب القوانين الخاصة بحكم أن الجزائر كانت تتبع قوانين خاصة. كما تم التحفظ على الكثير من المباني و المعالم بموجب قرارات و قوانين سنت طوال الفترة الاستعمارية⁵.

الاهتمام بالتراث الإسلامي:

بالرغم من حملة الهدم و الطمس الواسعة التي تعرض له تراث المدن و المعالم الإسلامية بالجزائر منذ الأيام الأولى للاحتلال، إلا أنه كانت هناك أصوات رغم قلة تطالب بحماية المعالم الإسلامية، بالإضافة للغضب الذي خلفه التعرض للمعالم الإسلامية وبشكل خاص المعالم الدينية لدى السكان المحليين، فقد أفادت العديد من تقارير وحدات الهندسة التابعة للجيش الفرنسي على ضرورة الحفاظ على السلم العام و عدم إثارة غضب سكان الجزائر المحليين و هو ما تم بالفعل فهناك تقارير تثبت أن بعض المعالم الإسلامية على قلتها تم ترميمها ليستمر استعمالها من السكان المحليين المسلمين تقاديا لنشوب ثورات على السلطة الجديدة، التي كانت تحارب في مناطق متعددة لفترات طويلة جدا قبل أن يستتب لها الأمر⁶.

فقد عمل العقيد لوميرسي (Lemerrier) قائد بوحدة الهندسة بالجيش الفرنسي بالجزائر سنة 1831 على إيقاف أعمال هدم مسجد السيدة بالجزائر بالرغم من أن سبب الاعتراض لم يكن قيمة المعلم التاريخية و لا الجمالية وإنما أمنية محضة، لكن المسجد تم هدمه بعد عدة سنوات لإنشاء ساحة عامة،و بالرغم من أن بعض التقارير التي تعود للسنوات الأولى للاستعمار تخبرنا على أعمال مختلفة جرت على المعالم الإسلامية، إلا أن الأمر لم يكن يحدث لقيمتها أي كانت و إنما للعديد من الأسباب منها الأمنية

كما ذكرنا سابقا، أو تهيئها لتستقبل وظيفة أخرى قد تكون مسكنا أو مخزنا، ثكنة أو أمرا آخر أيا كان، كما أن الأعمال كانت مجرد إصلاحات سطحية قد لا ترقى لتغيرات عميقة.

فقد جاء في تقرير اللواء قائد الوحدات العسكرية بوهان المؤرخ في 01 أكتوبر 1834 تفاصيل عن أعمال تجري بالعديد من المباني بمدينة وهران. بالإضافة لتهيئة مسكن عربي لإقامة القائد العسكري بتلمسان. لقد كان الجيل الأول من العلماء الذين رافقوا الحملات العسكرية و هو جيل نشأ بفرنسا ودرس بها ثم انتقل مع الحملات العسكرية أو خلالها ليكتشف المعالم الأثرية بالجزائر و ينقب عليها مستكشفين للتراث الثقافي بشكل عام والإسلامي بشكل خاص مكونا من العلماء و الباحثين فقط و إنما كان مزيجا بين عسكريين و تقنيين و رهبان و علماء و فنانيين و بحكم أن السيطرة كانت للعسكر لعشرات السنين الأولى فقد تمثل دورهم في قراءة التراث الإسلامي بالإضافة للتوصيات على ضرورة الحفاظ على بعض المعالم من العديد من الضباط بالجيش لدوافع كثيرة كنا قد ذكرناها سابقا.

أما علماء و مثقفو الجيل الثاني فقد شعروا بالارتباط بالثقافة المحلية و ضرورة دراستها فمنهم من نشأ بالغرب خاصة بفرنسا ثم انتقل للجزائر ليكتشف التراث المحلي و يرتبط به، و منهم من ولد بالجزائر أو أحد دول شمال إفريقيا و نشأ بها ربما ولد لديهم شعورا بالانتماء أكثر للموروث الثقافي المحلي، و قد ظهرت مع هذا الجيل جمعيات تدافع عن التراث المحلي أهمها جمعية الجزائر القديمة (le comité du vieil Alger) التي تأسست سنة 1905 من طرف مدنيين و عسكريين، ترأسها بداية العقيد قرامو (Grammond de E.D)، كما انضم للجمعية حاكم الجزائر جوناو (Célestin Jonnart) وأيضا جمعية تلمسان القديمة التي أسسها العالم ألفريد بل سنة 1936.

ظهر مع هذا الجيل تيار فني بالجزائر وبلدان عربية أخرى، وهو التيار المعمار الاستشراقي الذي عرف إنتاجا ضخما منذ بداية القرن التاسع عشر حتى ثلاثينات نفس القرن ثم تراجع أمام تيارات أخرى. لا جرم انه خلال الحقبة الاستعمارية كان للعلماء دور في قراءة التراث بصفة عامة، ويعكس اهتمام العلماء في السنوات الأولى للاستعمار الإستراتيجية العامة لنظام الاحتلال فكان الكثير من العلماء وسيلة لتبرير الاحتلال على أنه امتدادا للإمبراطورية الرومانية يشاركون في البعثات العلمية رفقة عسكريين لاكتشاف ثروات الجزائر بما في ذلك الثروات الأثرية، من ضمن من شارك في البعثة العلمية الأولى : الضابط أدولف ديلمار (Adolphe Hedwige Alphonse Delamare) الذي كان رئيس وحدة الآثار والمؤرخ و عالم الآثار لويس أدريان بربر وقر (Louis Adrien Berbrugger) و المهندس المعماري (Ravoisié)، و غيرهم من العسكريين و العلماء و المثقفين و الفنانين.

ومن أمثلة أولئك أدولف ديلمار (1798/ 1861) الذي شارك في البعثات الاستكشافية بالجزائر وقد نشر كتابا سنة 1850 بعنوان الاكتشافات العلمية بالجزائر لسنوات 1840، 1841، 1842، 1843،

1844، 1845. و يبدو جليا عند تصفح الكتاب أن الجزء الأكبر منه خصص للآثار الرومانية التي تم رسمها بدقة وتفاصيل أكبر، إلا أنه تم رسم صور عامة عن المدن الإسلامية و بعض معالمها على قلتها بالكتاب، الأمر الذي يسمح بقراءة المدن الإسلامية والمعالم التي تم رفعها في هذه الفترة، مثل مدينة بجاية، مدينة ميله و بعض معالمها الإسلامية و الرومانية، مخطط لمدينة قسنطينة وضواحيها بالإضافة لصور ورسومات تفصيلية لجسورها، و صور المدينة وأزقتها ومعالمها الإسلامية والرومانية مع التركيز على المعالم والآثار الرومانية التي تم رفعها و رسمها بشكل مفصل بالإضافة لصور و مناظر عامة عن مدن جزائرية أخرى وعن معالمها، خاصة منها الرومانية، و من بين هذه المدن التي تم ذكرها بالكتاب: عنابة، جيجل و قالمة.

أما بربر وقر المولود بباريس في 11 ماي 1801 والمتوفى بالجزائر في 02 جويلية 1869، فساهم بشكل كبير في قراءة التراث الثقافي الإسلامي، إذ رافق الدوق كلوزيل (Comte Bertrand Clauzel) للجزائر كأمين سر خاص سنة 1833، ثم عاد للجزائر سنة 1835 و قد شغل عدة مهام من بينها رئيس تحرير جريدة (Moniteur Algérien) الصادرة بالجزائر، وقد أنشأ أول مكتبة بالجزائر، في العاصمة سنة 1835، وضع بها آلاف المخطوطات التي جمعها خلال مرافقته البعثات العسكرية، و قد استقال فيما بعد من الجريدة ليكرس معظم وقته للآثار و حفظ التراث.

سنة 1842 نشر بربروقر أعماله التي ألفها بعد الرحلات الاستكشافية لكل من مدينتي معسكر وقسنطينة. في مارس من سنة 1856 قام بتأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية (Société historique algérienne) التي عملت على نشر المجلة الإفريقية (Revue africaine) لعشرات السنين والتي تعتبر منشوراتها من المراجع المهمة للتراث الثقافي الجزائري، خاصة أن الكثير من المقالات تعطينا صورة عن التراث الثقافي و خاصة المعالم الأثرية بالجزائر قبل أن يشرع في التغيير الجذري الممنهج من طرف الادارة الاستعمارية.

كما قام بربروقر بعدة تنقيبات و مهام بالمواقع الرومانية أهمها المهمة التي قادته لمدينة قالمة سنة 1837 والتي مكنته من البرهنة على أن المدينة الرومانية بهذه الناحية ليست إلا مدينة كلامة (Calama) و قد تحصل بسبب اكتشافه على الميدالية الذهبية أكاديمية النقوش والآداب الفرنسية (Académie des Inscriptions et Belles-Lettres).

من بين من عملوا على دراسة التراث بالجزائر في السنوات الأولى للاستعمار المهندس المعماري ادمون ديثوا (Duthoit Edmond) الذي جاب المقاطعات الكبرى للجزائر (الجزائر و قسنطينة و وهران) و ساهم هذا المهندس في الرفع المعماري و الأثري للكثير من المعالم الإسلامية، خاصة تلك التي تقرر هدمها. على سبيل المثال المدرسة التاشفينية بتلمسان التي قام برسمها قبل أن يتم هدمها من طرف بلدية تلمسان سنة 1872.

و قد كان ادموند أول من يشغل منصب المهندس المعماري للمعالم التاريخية الذي تم إحداثه بالجزائر في نفس الوقت كلف بمتابعة أعمال الترميم والصيانة الجارية على المعالم التاريخية، ينتقل بين مختلف ورشات الصيانة و الترميم في المناطق المحتلة، من بين تلك المعالم المرممة التي قام بمتابعتها، المسجد الكبير بتلمسان، مسجد سيدي أبو مدين والمنصورة بتلمسان أيضا.

نشر ادموند الأعمال التي أجراها على المعالم، كما قام بعرضها بصالون باريس (ظاهر عبد القادر، 2015)، ولقد وجد هذا المهندس ضالته بمدينة تلمسان، الزاخرة بالمعالم الدينية المختلفة من مساجد و مدارس و التي ذاع صيتها بفضل الكتاب الذي نشره الكاهن بيرجاس (l'abbé Barges) وترجمة كتاب يحي ابن خلدون عن تلمسان من طرف الدوق سلان (Slane) (نبيلة أولبصير، 2003)

لاشك انه من العلماء الذين لهم الدور الفعال في قراءة التراث الإسلامي، الأخوين جورج وويليام مارسي. ولد ويليام مارسي سنة 1872 بمدينة رين الفرنسية، و توفي سنة 1956 بباريس، درس العربية والتركية و الفارسية، كما أنجز أطروحة دكتوراه عن التورث في الإسلام، ناقشها سنة 1898، انتقل للجزائر و شغل بها عدة مناصب، منها منصب محافظ بالمتحف الإسلامي بتلمسان، ثم مدير مدرسة تلمسان و هي مؤسسة تعليمية مخصصة للسكان المحليين، ثم مفتش عام للتعليم للسكان المحليين بالجزائر سنة 1908 ثم مدير المدرسة العليا للآداب واللغات بتونس سنة 1913، ليعود بعدها لباريس ليشغل عدة مناصب لغاية تقاعده سنة 1942.

ويليام مارسي و بحكم دراساته العالية و احتكاكه بالثقافة العربية الإسلامية اجتهد في قراءة التراث الإسلامي و إيصال تلك الثقافة للعالم عن طريق منشوراته التي نذكر منها : الدارجة العربية المنطوقة بتلمسان سنة 1902، المعالم العربية بتلمسان سنة 1903، الدارجة العربية لأولاد إبراهيم بمدينة سعيدة، سنة 1908، العادات الإسلامية سنة 1914، تحقيق و ترجمة لمخطوطات عربية لتكرونة سنة 1925... إلخ.

أما جورج مارسي المولود في مارس 1876 و المتوفى في ماي 1962، فقد درس في معهد الفنون الجميلة، كما درس التاريخ و الجغرافيا بكلية الآداب برين بفرنسا، عند قدومه للجزائر درس بمدينة قسنطينة، له دور فعال في قراءة و دراسة التراث الإسلامي بالجزائر و قد ألف العديد من المؤلفات، نذكر منها الأمازيغية الإسلامية و المشرق في العصور الوسطى، سنة 1946، مدن الفن الراقي، تلمسان، سنة 1950، العمارة الإسلامية بالغرب، فنون و حرف الرسومات، سنة 1954، جزائر العصور الوسطى، المعالم الأثرية والمناظر الطبيعية التاريخية، فنون وحرف الرسومات سنة 1957، مدن وريف الجزائر سنة 1958 و الفن الإسلامي سنة 1962.

ترجم للعربية زيارة القس برجيس ('abbé Barges) لتلمسان المرة الأولى سنة 1846 بنشر كتاب بعنوان : تاريخ بنو زيان، ملوك تلمسان، وهو ترجمة لكتاب أحد أعلام الجزائر: محمد عبد الجليل

التنسي، تبعها نشر الطبعة الثانية التي هي تكملة لترجمة نفس العالم بعنوان : تكملة لتاريخ بنو زيان، ملوك تلمسان. كما نشر كتابا عن رحلته لمدينة تلمسان بعنوان: تلمسان، العاصمة القديمة لمملكة بنفس الاسم، التضاريس و تاريخ، وصف معالمها الرئيسية، الحكايات، ومختلف الأساطير والقصص، ذكريات سفر. كما نشر كتابات عن العالم سيدي أبي مدين و تجارة تلمسان مع السودان. منشورات برجيس روجت للتراث الإسلامي بتلمسان وجذبت لها الكثير من المثقفين و الباحثين استقر بعضهم بها و عمل بها وبحث في تراثها.

شارل بروسار الذي شغل منصب حاكم مدينة تلمسان من 1853 إلى 1862 نشر عدة كتب عن النقوش والكتابات الأثرية بتلمسان، وايضا ألفريد بيل (Alfred Bel) المولود في مايو 1873 بفرنسا و المتوفى بمكناس سنة 1945، وهو مستشرق مُعرب، عمل لمدة ثلاثين عام (1905-1935) مديرا لمدرسة تلمسان، له مؤلفات كثيرة عن التراث و التاريخ الإسلامي و هي : بنو غانية و ثورتهم ضد الموحدين سنة 1903، تلمسان وضواحيها، دليل مفصل عن السياحة سنة 1908، ترجمة كتاب يحيى بن خلدون : بنو زيان ملوك تلمسان- الجزء الثاني سنة 1913، صناعة الصوف بتلمسان (ألفه مع بروسبير ريكار) سنة 1913، ورشة الفخار و الزليج بالقرن العاشر ميلادي المكتشف بتلمسان سنة 1914، المغرب الخلاب، فاس و مكناس و ضواحيها سنة 1917، صناعة السيراميك بفاس سنة 1918، دليل مكتبة الكتب العربية لكتبة مسجد القيروانية سنة 1917، التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (ألفه بمعية محمد بن شنب) سنة 1920، ترجمة كتاب : جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس لأبي الحسن الجزنائي، سنة 1920.. إلخ.

لم يقتصر الاهتمام بالمعالم الأثرية على الأفراد بل تعداه للعائلات ومن العائلات التي ساهمت في دراسة التراث المحلي بالمغرب العربي، و بشكل خاص بالجزائر عائلة باسيت (Basset)، حيث أن روني باسيت (René Basset)، فالأب يعتبر من الباحثين الذين عملوا على قراءة التراث الإسلامي و الأمازيغي بالجزائر فهو مختص في العربية و الأمازيغية، ولد في جويلية 1855 بمدينة ليني فيل بفرنسا وتوفي بالجزائر سنة 1924، يعتبر أول مدير لمدرسة الآداب بالجزائر، التي تأسست سنة 1879، عمل و نشر عدّة دراسات عن التراث الإسلامي بالجزائر نذكر منها : دراسة لزنانة ميزاب سنة 1892 ومجموعته القصصية ألف حكاية وحكاية، قصص وأساطير عربية سنة 1924.

و قد حذا حذوه ابنه و تخصصا في اللغة الأمازيغية، ابنه أوندري باسيت (André Basset) ولد في 1895 بمدينة ليني فيل وتوفي في سنة 1956 ببائيس، هو مختص باللغة الأمازيغية، تقلد عدّة مناصب بالجزائر و المغرب نذكر منها تدريس الأمازيغية بكلية الآداب بالجزائر من سنة 1925 إلى سنة 1928 و له كتابات عن اللغة الأمازيغية.

ابن روني باسيت الثاني هو هنري باسيت (Henri Basset) ولد بليني فيل سنة 1892 وتوفي بالرباط سنة 1926. متحصل على شهادة دكتوراه من كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1920، و بالرغم

من أنه لم يعمر طويلا إلا أن مؤلفاته فاقت مؤلفات والده وأخيه، فقد ترك العديد من المؤلفات عن التراث الأمازيغي و بشكل أخص التراث الأمازيغي الإسلامي، شملت معظمها دراسات عن التراث الإسلامي بالمغرب الأقصى المملكة المغربية حاليا.

إميل جانيي (Émile Janier)، ولد بأورن بفرنسا سنة 1909 وتوفي بتلمسان سنة 1958، وبالرغم من أنه لم يكتشف الجزائر إلا سنة 1940 بعد هزيمة الفرنسيين أمام الألمان بالحرب العالمية الثانية إلا أن له إنتاجات فكرية كثيرة عن الآثار والنقوش ودراسات تاريخية واجتماعية عن منطقتي تلمسان ووهران كما أنه آخر مدير لمدرسة تلمسان، بين 1945 و 1951 تم تعيينه أستاذا للأدب الفرنسي والإغريقي بمدرسة تلمسان سنة 1940، لقد عمل الكثير من البحوث والتحقيقات الميدانية عن الأمازيغ، ثم شرع في البحث و قراءة التراث العربي الإسلامي خاصة بمدينة تلمسان التي استقر بها و عمل بمؤسساتها في الفترة الاستعمارية لغاية وفاته، في أواخر حياته خصص كل وقته للبحث في التاريخ و الآثار، باحثا في تاريخ تلمسان من عصور ما قبل التاريخ للفترة الإسلامية. ناشرا نشطا بين سنتي 1943 و 1951 بالمجلة الإفريقية و جريدة أعمال الجمعية التاريخية الجزائرية، و نشر كذلك ما بين سنتي 1944 و 1950 بنشرية الجمعية الجغرافية وعلم الآثار لوهران وبمجلات أخرى.

في سنة 1946 ترأس جمعية أصدقاء تلمسان القديمة، التي أسسها ألفريد بيل سنة 1936 بمناسبة المؤتمر الثاني لاتحاد علماء شمال إفريقيا، بعد وفاة ألفريد ثم عين محافظا بمتحف تلمسان، وقد عمل على الدفاع عن معالم تلمسان الإسلامية، ففي فترة إدارته تم اكتشاف العديد من المقتنيات الأثرية أثرت متحف تلمسا. كما لديه منشورات كثيرة عن التراث الإسلامي و الأمازيغي، نذكر بعضها : المنشور بالمجلة افريقية : بالعدد 87، الصادر سنة 1943 : ملاحظة على الكتابة العربية تعود لسنة 1846 وجدت في جدار المشور في تلمسان و بالعدد 88 الصادر سنة 1944: الصناعات المحلية بمنطقة ترارا، و بالعدد 90، الصادر سنة 1946 : اكتشاف أثري في بالمشور تلمسان.....إلخ. و من بين منشوراته بنشرية الجمعية الجغرافية وعلم الآثار لوهران نذكر : الكتابات العربية بندرومة بالعدد 66-67 سنتي 1945-1946....إلخ، و من منشوراته بنشرية جمعية أصدقاء تلمسان القديمة نذكر : زيارة أثرية لهنين بتاريخ 20 ماي 1951 بالعدد رقم 02، منتجات عصور ما قبل التاريخ في منطقة تلمسان سنة 1951، بالعدد رقم 02، الصور المريني للمنصورة بالعدد رقم 04، سنتي 1955-1956، بالإضافة لأعمال أخرى كثيرة.

الخاتمة:

تطور التعامل مع التراث الإسلامي بالجزائر منذ السنة الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر، فبعد أن كان هدفا للتخريب المباشر من طرف الجيش الفرنسي و المعمرين، أصبحت بعض المعالم الإسلامية تلقى الاهتمام ولم يكن حبا في هذا التراث إنما رغبة في تفادي غضب السكان المحليين لما تمثله لهم

معالمهم الدينية. وتطور بعد ذلك ليتم إدماج التراث الإسلامي ضمن التراث الثقافي، بتسجيل بعض المعالم الثقافية ضمن التراث الثقافي الجزائري في أول لائحة لتسجيل التراث سنة 1887، تلتها عدّة تسجيلات تضمنت المزيد من معالم و آثار التراث الإسلامي.

لكن بالرغم من أن التراث لإسلامي حضي مع الوقت خلال فترة الاحتلال بالاهتمام بشكل تصاعدي فقد بقي دائما في الدرجة الثانية، و الاهتمام لم يعكس الثروة الثقافية الإسلامية المتواجدة بالجزائر، كما أن استعمال المعالم الدينية الإسلامية لوظائف أخرى استمر لغاية الاستقلال و استمر التخريب و توسع النسيج العمراني الأوروبي على حساب النسيج العمراني الإسلامي و لم يسترجع التراث الثقافي الإسلامي مكانته إلا بعد استقلال الجزائر سنة 1962، حيث كان من أولويات الدولة الفتية رد الاعتبار للتراث الإسلامي المحلي بعد تهميش دام 132 تحت وطأة الاحتلال الفرنسي.

في المقابل كان رأي و اهتمام فئة من المفكرين و الباحثين مغايرا للسياسة المتبعة من سلطات الاحتلال فمنذ السنوات الأولى للاستعمار، فبعض المفكرين و الفنانين و الباحثين للتراث الثقافي الإسلامي و عملوا على قراءته و إيصال هذه القراءة للعالم، و قد جذب ذلك الكثير من الباحثين، فكرّس العديد منهم حياته في دراستها و قراءتها و إيصال ذلك للقارئ في كل زمان، و يرجع الفضل لكثير منهم للدراسة التي وصلتنا، خاصة عن المعالم لتي تم هدمها.

الهوامش:

1- مدنيين وعسكريين و مساحين وعلماء الطبيعة واللغويين وعلماء الآثار تفرقوا في الأشهر الأولى من عام 1840. بدوره الجيولوجي رونو (Renou) تواجد بقسنطينة مند مارس 1840. ظروف العمل صعبة: طرق مزرية ودرجات حرارة مرتفعة، حمى وخاصة انعدام الأمن المستمر. وبصرف النظر عن عدد قليل من المناطق المؤمنة، لم ينتقل العلماء إلا في حماية العساكر. بروك نوما، البعثات العلمية الفرنسية الكبرى في القرن التاسع عشر (موريا، الجزائر، المكسيك) والأعمال الجغرافية. في: مجلة التاريخ والعلوم. 1981، مجلد 34 رقم 3-4 ص ص 319-358، ص ص 330-331.

2- خلال فترة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، عرف الاهتمام بالآثار الرومانية تطورا ملحوظا، فقد تم التنقيب في عشرات المواقع الأثرية وترميم العديد من المواقع، في المقابل لم تحظى الآثار الإسلامية بما حظيت به المواقع الروماني. باغلي سيد أحمد، مظاهر السياسة الثقافية بالجزائر، اليونسكو، باريس، 1977.

3 - (...) في الجهة الشرقية للمشور، المباني التي كان يتكون منها قصر الملوك القدماء و الحدائق..... الحدائق كانت تضم أشجار البرتقال والليمون ذات أحجام مذهلة ونادرة الجمال. الأشخاص الذين أعطونا هذه المعلومات يتأسفون على عدم ترك تلك الأشجار التي ربما لا يوجد لها مثيل بالجزائر كاملة. لكن هل ضباط الهندسة يحترمون شيئا، لما يتعلق الأمر بتنفيذ مخططاتهم؟ ذكريات تاريخية، آثار، معالم فنية، لا شيء مقدس بالنسبة لهم، يلزمهم المطرقة، الهدم و التسوية. محمد عبد الجليل التنسي، تاريخ بنو زيان. ترجمة الكاهن برجاس، باريس، 1852، درا النشر بن جامين ديبيرات، ص 359.

4 قرارا الحاكم العام المؤرخ في 14 فيفري 1842، الخاص بالتحفظ على جميع العقارات المهجورة في مدينة تلمسان والإقليم التابع لها.

5 القرار المؤرخ في 1 ديسمبر 1840، الخاص بالقانون العام للتحفظ على الممتلكات.

6 السيد المفتش، ثم اقتراب شهر رمضان والسكان المسلمين في مدينة بليدة وحتى سكان الضواحي عبروا لي عن مخاوفهم بشأن الإصلاحات التي قد بدأت بالمسجد المتواجد بشارع المقهى الكبير و هم يخشون عدم انتهاء الإصلاحات في الوقت المحدد. يجب أن لا نتجاهل السيد المفتش التأثير السيئ لحدوث أمر مماثل على هذه الفئة من السكان و التي من واجبنا احتوائها في هذه الظروف ، لذلك آمل أن تتخذوا الخطوات اللازمة لإنهاء الأعمال بأسرع وقت ممكن، وخصوصا للفترة التي لمحنها لها (...). الأرشيف الوطني لما وراء البحار، 2ن58، رسالة حاكم مدينة بليدة لحاكم ولاية الجزائر و المفتش العام العسكري، المؤرخة في 26 ماي 1851، رقم 1958، الخاصة بأعمال تصليح المسجد الواقع بشارع المقهى الكبير.